كليــة اللغة العربية بأسيوط
المجلــة العلميــة

أثــر الفكــر الفلسفــي عنــد ابـن جنــي
فــي تفـريعـات العـلاقـة بيـن الـدال والمـدلـول
فـــي ضـــوء نظـــرية المحاكـاة

إعداد

د/ عبدالمنعم عبدالرحمن أحمد عبدالله

مدرس أصول اللغة بكلية اللغة العربية بأسيوط

(الـعـدد الواحد والأربعون)
(الإصدار الأول.. أبريل)
الجزء الأول
(١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م)

أثر الفكر الفلسفي عند ابن جني في تفريعات العلاقة بين الدال والمدلول في ضوء نظرية المحاكاة

عبدالمنعم عبدالرحمن أحمد عبدالله
قسم أصول اللغة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، أسيوط، جمهورية مصر العربية.
البريـــد الإلكترونـــي: abdelmonem-gadallah.47@azhar.edu.eg

الملخـــص:
تقوم فكرة هذا البحث على محاولة الربط بين نظرية المحاكاة في نشأة اللغة وما تفرع عنها من علاقة بين الدال والمدلول ، استدركها الفيلسوف اللغوي المتفرد (أبو الفتح عثمان بن جني) والمتمثلة في باب : (إمساس الألفاظ أشباه المعاني)، فقد تفرع من هذا الباب فروع تدل على العلاقة الطبيعية بين الدال ومدلوله، حكاها ابن جني، فمنها : زيادة المبنى لزيادة المعنى، وقوة اللفظ لقوة المعنى، ومقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، وسوق الحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب، وسأحاول من خلال قراءة فكره في هذه الأبواب معرفة مدى رضاه عن هذه النظرية ، ومدى تطبيقه لها، ومدى تأثره بالفكر الفلسفي اليوناني لاسيما فكر أفلاطون . وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد ومبحثين، أما المقدمة فقد تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج الذي سرت عليه، وتحدثت في التمهيد عن معنى الفلسفة والمحاكاة لغة واصطلاحا، وتناول المبحث الأول الحديث عن المحاكاة عند الفلاسفة وابن جني، وتحدثت في المبحث الثاني عن الجانب التطبيقي القائم على نظرية المحاكاة في علاقة الدال بالمدلول في كتاب الخصائص ، ومدى تأثر ابن جني بالفلاسفة في

هذه التفريعات الدلالية ، وأخيرا ختمت البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج والتوصيات، ثم أردفت البحث بفهرس للمصادر والمراجع والدوريات .

الكلمات المفتاحية : المحاكاة ، علاقة الدال بالمدلول ، الفكر الفلسفي.

The impact of the philosophical thought of Ibn Jinni on the ramifications of the relationship between the signifier and the signified in the light of the theory of simulation

Abdel Moneim Abdel Rahman Ahmed Abdullah
Department of Fundamentals of Language - Faculty of .Arabic Language in Assiut - Arab Republic of Egypt
EM. abdelmonem-gadallah.47@azhar.edu.eg

Abstract

The idea of this research is based on an attempt to link the theory of simulation in the emergence of language, and the relationship between the signifier and the signifier branched from it, which the unique linguistic philosopher (Abu Al-Fath Othman bin Jinni) realized, represented in the chapter: (convergence of words with pseudo-meanings), From this chapter, branches have branched out that indicate the natural relationship between the signifier and its signifier, narrated by Ibn Jinni. including: increasing the mabni to increase the meaning, the strength of the pronunciation for the strength of the meaning, and the matching of words with their sounds like the events, and the market of letters according to the meaning of the intended meaning and the desired purpose. I will try, by reading his thought in these chapters, to find out the extent of his satisfaction with this theory, the extent to which he applies it, and the extent to which he was influenced by Greek philosophical thought, especially the thought of Plato. The nature of the research required that it come in an introduction, a preface and two chapters. As for the introduction, I spoke about the

importance of the topic, the reasons for choosing it, and the approach that I followed. In the preface, I talked about the meaning of philosophy and simulation in language and terminology. In the second topic about the applied aspect based on the theory of simulation in the relationship of the signifier to the signified in the book of characteristics, and the extent to which Ibn Jinni was affected by the philosophers in these semantic ramifications, and finally I concluded the research with a conclusion that included the most important results and recommendations, then I added the research with an index of sources, references and periodicals.

Keywords: ***Simulation , The Relationship Of The Signifier To The Signified , Philosophical Thought.***

.

مقـــدمـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وأفهمه ما لم يكن يفهم، فوهبه عقلا وسمعا وبصرا ولسانا وشفتين، ومنَّ عليه بالنعم الكثيرة التي تجعله قادرا على أداء مهمته المكلف بها، من عبادة الله وإعمار الأرض، والقدرة على التواصل، والصلاة والسلام على أشرف من نطق بالضاد، وأُوتي الحكمة وفصل الخطاب، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد،،،

فإن من القضايا التي أُثيرت قديما وحديثا: قضية كيف بدأ الإنسان التكلم؟، والتي اصطلح العلماء على تسميتها ب(أصل اللغة)، أو (نشأة اللغة)، وهذه القضية شغلت فكر المهتمين والمختصين بهذا الجانب، وذهب كل فريق إلى اتجاه يخالف صاحبه، وأقام كل فريق أدلته التي تدعم حجته، وتدحض حجج مخالفيه، وفي الحقيقة لم يهتد العلماء إلى رأي قاطع في هذه القضية، الأمر الذي دعا كثيرًا من العلماء إلى ترك البحث فيها، ولكنها لا زالت مطروحة في كثير من المدارس الغربية، التى ترى أن العلم لا ينبغي أن يقف عند حد الجزم في مسألة من المسائل العلمية فحسب، فهناك مسائل احتمالية تستدعي إعمال الفكر ما أمكن، ومنها قضية (نشأة اللغة) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه القضية في معظم جوانبها قائمة على أسس فلسفية عقلية؛ لأنها قضية مجهولة، وغير يقينية، فاهتم بها فلاسفة الإغريق واليونان، وذهبوا فيها مذاهب شتى.

وتعد المحاكاة الطبيعية من أهم النظريات التي طرحها بعض هؤلاء الفلاسفة، وعلى رأسهم: أفلاطون وتابعوه، ثم انتقلت هذه النظريات إلى لغتنا العربية عن طريق الترجمة، والاتصال بالثقافات الأخرى، ووصلت إلى علمائنا الأجلاء الأفاضل، الذين لم يقفوا مكتوفي الأيدى في الإدلاء بدلوهم في هذا الجانب، ولكن بصبغة عربية وفكر جديد، فالتأثر ليس عيبا، وإنما العيب في التبعية، وعدم الابتكار .

وكان من هؤلاء العلماء: العلامة والفيلسوف اللغوي ابن جني (ت٣٩٢هـ)، الذي تحدث عن هذه النظريات في كتابه الخصائص، وأولاها اهتماما كبيرا، وكان ضمن هذه النظريات: نظرية المحاكاة التي قبلها، وأعلن رضاه بها، والتي هي محور أساس من محاور هذا البحث. فقد ترتب على إيمان ابن جني بهذه النظرية تفريعات وعلاقات بين الدال والمدلول، وقد صاغ أمثلتها بأسلوب فلسفي يسحر العقول، ويجذب الأفئدة، ومن هنا جاء عنوان بحثي: (أثر الفكر الفلسفي في تفريعات العلاقة بين الدال والمدلول عند ابن جني في ضوء نظرية المحاكاة) ، وكان سبب اختياري له يرجع إلى أمور، من أهمها:

١- إثبات عملية التواصل بين الفكر العربي، والأفكار الوافدة، للتدليل على عدم الانغلاق، والرسوف في حيز ضيق من الثقافة اللغوية .

٢- بيان ما كان يتمتع به علماؤنا القدامى من إبداع فكري ونتاج معرفي .

٣- أن دراسة هذا الجانب تكشف لنا اللثام عن قضايا أخرى كانت – ولا تزال – محل اهتمام كثير من العلماء، مثل قضية أسبقية اللفظ والمعنى .

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، تتلوهما خاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع والدوريات على النحو التالي :

المقدمة: تحدثت فيها عن الموضوع من حيث التأصيل له، وخطته، وأسباب اختياره.

التمهيد: عبارة عن التعريف بمصطلحين من المصطلحات اللغوية، لهما اتصال وثيق بموضوع البحث، وهما: مصطلح الفلسفة، ومصطلح المحاكاة.

المبحث الأول: جاء بعنوان: (نظرية المحاكاة بين فلاسفة اليونان وابن جني).

المبحث الثاني : وعنوانه: (أثرنظرية المحاكاة في تفريعات العلاقة بين الدال والمدلول عند ابن جني) .

الخاتمة: ذكرتُ فيها نتائج البحث، وتوصيات الباحث، ثم أردفت الخاتمة بفهرس المصادر والمراجع والدوريات.

الدراسات السابقة التي بين يدي:

لقد وجدت إشارات في بعض الكتب الحديثة إلى هذا الموضوع، ولكنها إشارات على استحياء، لا تفي بمسائله، ولا تستوعب عناصره، أهمها:

١- الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها، د. هادي نهر، ط : ثانية مزيدة ومدققة ومنقحة ٢٠٠٥ م – ١٤٢٦هـ . دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن- اربد.

٢- بحوث في اللغة بحث بعنوان: (اللغة العربية التحديات والمواجهة) للأستاذ. سالم مبارك الفلق اتحاد الكتاب العرب – المكتبة الشاملة .

٣- بحوث في اللغة بحث بعنوان : (أصالة اللسان العربي)، د. جعفر دك الباب، اتحاد الكتاب العرب المكتبة الشاملة .

٤- فلسفة اللغة عند أفلاطون ومعه نص محاورة كراتيليوس، (دراسة وترجمة) د. عزمي طه"السيد أحمد" ، ط : أولى ٢٠١٥م- عالم الكتب الحديث- الأردن- اربد

٥- المحاكاة دراسة في فلسفة اللغة العربية، د. خالد سعد كموني، ط ثانية ٢٠١٤م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب -.

منهجي في البحث:

لقد كان منهجي في هذا البحث قائما على المنهج الوصفي : تحليلا واستنباطا، وتأثرا وتأثيرا، فكنت أقرأ نص ابن جني، وأحاول جاهدا استخراج بعض المسائل التى لها علاقة بموضوع البحث، مع تحليل النص، وبيان ما إذا كان ابن جني متأثرا بغيره أم لا .

وأخيرا، أسأل الله - تعالى- أن ينال بحثي هذا رضا أساتذتي الأعلام الأجلاء، وأن يفيد من يطالعه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تمهيد

تعريف الفلسفة والمحاكاة

قبل الشروع في موضوع البحث أرى من الضروري إلقاء الضوء على مصطلحين مهمين، لهما ارتباط وثيق بعنوانه ومضمونه، ألا وهما : الفلسفة والمحاكاة، وهاك تعريفهما لغة واصطلاحا :

أولا: الفلسفة لغة واصطلاحا :

الفلسفة لغة : أصل كلمة فلسفة هو اختصار لكلمتين يونانيتين ، هما : فيلو، وتعني : حب، وسوفيا: وتعني: الحكمة، أي إن معنى الفلسفة هو حب الحكمة، وينسب بعض المؤرخين هذا الاصطلاح إلى فيثاغورس، الذي أطلق على نفسه لقب فيلسوف، ويرجعه بعضهم إلى سقراط الذي وصف نفسه بالفيلسوف؛ رغبة منه في تمييز نفسه عن السوفسطائيين الذين يدعون الحكمة، ويرى آخرون أن مصطلح فلسفة يعود إلى أفلاطون؛ حيث استخدمها في وصف سولون وسقراط[١].

الفلسفة اصطلاحا : تعددت تعريفات هذا المصطلح عند العلماء قديما وحديثا، وقال العلامة السيوطي(ت٩١١هـ):" الفَلْسَفةُ : هِيَ الْحِكْمَة، وَقيل معرفَة الْإِنْسَان نَفسه، وَقيل: علم الْأَشْيَاء الأبدية" [٢]، ويقول القاضي الأحمد نكري(ت١١٣٠هـ):" الفلسفة: فِي اللُّغَة اليونانية التَّشَبُّه بِحَضْرَة وَاجِب الْوُجُود بِقدر الطَّاقَة البشرية لتَحْصِيل السَّعَادَة الأبدية .....وَقَالُوا إِن الفلسفة مُشْتَقَّة من فيلاسوفا أَي محب الْحِكْمَة، والفلاسفة : الْحُكَمَاء." [٣]

(١) تبسيط الفلسفة: د. رجب بو دوبوس ص ١٣، ١٤.

(٢) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم : ص ١٣١.

(٣) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون :٣٢/٣.

وجاء في المعجم الوسيط أن الفلسفة هي:" دراسة المبادئ الأولى، وتفسير المعرفة تفسيرا عقليا، وكانت تشمل العلوم جميعا، واقتصرت في هذا العصر على المنطق والأخلاق وعلم الجمال وما وراء الطبيعة " (١)

وأرى أن التعريف الأشمل والأعم هو تعريف إيمانويل كانت (٢) الذي جعلها عامة في كل ما ينتجه العقل من أفكار، فيرى أن الفلسفة هي المعرفة الصادرة من العقل (٣).

ثانيا : **المحاكاة لغة واصطلاحا**:

المحاكاة لغة: قال الخليل:" حكَيتُ فلاناً وحاكيتُه إذا فعلتُ مثلَ فِعْلِه، أو قلت مثل قوله سواء لا تجاوزه "(٤). ، قال ابن منظور:" المحاكاة: المشابهة " (٥).

المحاكاة اصطلاحا : لقد تعددت تعريفات العلماء للمحاكاة تبعا لاختلاف مقاصدها وأهدافها، فهناك محاكاة اجتماعية سلوكية(٦)، وهناك محاكاة لغوية، وهي التي تعنينا هنا، فقد عرفها بطرس البستاني بقوله:" يراد بها في وضع اللغات :

(١) ينظر:٢/٧٠٠(ف ل س ف) .

(٢) فيلسوف ألماني ولدسنة١٧٢٤م، يعد آخر فيلسوف أثر في أوروباالحديثة، من أهم أعماله: كتاب: (نقد العقل المجرد) توفي سنة ١٨٠٤م، تنظرترجمته في: التعريف بإيمانويل كانط وتثميره في المنهج للباحثة: وداد الجمال، ص ١-٣ من المقدمة .

(٣) ينظر: تعريف الفلسفة لغة واصطلاحا، بحث للكاتبة إسراء حرب، ص ١ .

(٤) كتاب العين : ٣/٢٥٧(ح ك ى)، وينظر: تهذيب اللغة:٥/٨٥، والمحكم :٣/٤١٢، وتاج العروس : ٧/٤٥٨.(ح ك ى) .

(٥) ينظر: لسان العرب : ١٤/١٩١(ح ك ى) .

(٦) وهي المحاكاة القائمة على التقليد في شتى مناحي الحياة من مأكل ومشرب وملبس، وغيرها من العادات الاجتماعية.

تسمية الأشياء بأسماء لها بعض شبه بما يسمع لها، من الصوت، أو الحركة، أو نحو ذلك، ووضع أفعال لها تقاربها في ذلك " [١]

فالمحاكاة اللغوية طريق من طرق التقليد الإنساني للظاهرة الطبيعية المحيطة به، فينتج عن ذلك التقليد لغة تفاهم ، يتداولها البشر فيما بينهم، وفي مجتمعهم، ويتفقون على مدلولاتها، بحيث إذا انطلق اللفظ المحاكي للطبيعة دل على ما حاكاه، وفهمه أهل المجتمع، يقول الدكتور خالد سعد كموني: " نلاحظ في كلام البستاني تركيزا على المحاكاة الصوتية في الفعل اللغوي ، بحيث تبدو عملية التكلم نتاجا طبيعيا لهذه المحاكاة ، وعملية التسمية تقوم على هذا الفعل المحاكاتي ؛ لأنه يمكن من تحقيق المحايثة[٢] بين الذهن والواقع، فالاقتراب من الشيء والتعرف إليه يكونان عن طريق إطلاق صوت يصدره الإنسان تعبيرا عن علاقته بهذا الشيء،....إذا، تجربة المحاكاة تستدعيها مصلحة الإنسان مع الأشياء، أي إن الكون المحيط يخضع لخصوصية الرؤية، الأمر الذي يسمح بتدخل العناصر النفسية والاجتماعية والأنثروبولوجية والثقافية واللغوية،وغير ذلك من المؤثرات الفاعلة في الفعل المحاكاتي الذي يؤثر في عملية التسمية وفي الفعل اللغوي بشكل عام". [٣]

وأرى أن المحاكاة الصوتية في الفعل اللغوي موجودة بالفعل، ولكنها ليست عامة في كل الأفعال، وإنما هي مقصورة على بعض الأفعال المتصلة بأصوات الإنسان والحيوان، والظواهر الطبيعية، وسيأتي بيان ذلك فيما بعد .

(١) دائرة المعارف – المجلد السابع، ص ١٢٤.

(٢) مصطلح استعمله الباحث، واشتقه من (حيث)، فهو دال على المقاربة والتقارب .

(٣) المحاكاة دراسة في فلسفة اللغة العربية : ص ٩٣، ٩٤.

المبحث الأول

نظرية المحاكاة بين فلاسفة اليونان وابن جني

أولا: عند فلاسفة اليونان :

لقد "تصدى للبحث في نشأة اللغة كثير من الفلاسفة والمتكلمين واللغويين ، وذهبوا في البحث مذاهب شتى فهذا يقول مصدرها التوقيف من الله ، وذاك يقول مبدؤها الطبيعة ، وثالث يقول منشؤها الاصطلاح والتواطؤ، ويكفينا هنا أن نعلم أن هناك نظريات متعددة حول نشأة اللغة ، أشهرها أربع نظريات :

١- نظرية التوقيف : قال بها أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، وتبعه تلميذه ابن جني في أحد أقواله، وأبو الحسن الأشعري(ت٣٢٤هـ)، وابن فارس(ت٣٩٥هـ)، وابن حزم(ت ٤٥٦هـ) ، وابن قدامة (ت ٦٢٠هـ)، والآمدي(ت٦٣١هـ)، ومعظم رجال الدين ، ويستدلون بقوله تعالى:{ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[١]، وبما جاء في سفر التكوين " وجبل الربّ الإله كل حيوانات البرية ، وكل طيور السماء ، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، فكل ما دعا به آدم من ذات نفس حيّة، فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء ، وجميع حيوانات البرّيّة " [٢] .

٢- نظرية المواضعة والاصطلاح : وعبر عنها ابن جني بقوله :"وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإنابة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد منها سِمة ولفظاً إذا ذكر عرف به ما مسماه ليمتاز من غيره وليُغْنَى بذكره عن إحضاره إلى مَرْآة العين ....." [٣]. وقال بها من فلاسفة

(١) البقرة : آية (٣١) .
(٢) الإصحاح الثاني عشر : آية (١٩-٢٠) .
(٣) الخصائص:١/٤٤ . .

اليونـان: سـقراط ، وأرسـطو، وديمقـريط ، وآدم سـميث ، ومـن العـرب : أبـو إسـحاق الإسفراييني(ت ٤١٨هـ) وابن خلدون(ت ٨٠٨هـ)، والسيوطي .

٣- نظرية الغريزة : يريدون أن الله زوّد الإنسان بآلة الكلام ، وبجهاز للنطق ، فهو حتما سينطق شاء أم أبى .

٤- نظريـة المحاكـاة: تعنـي أن يحـاكي الإنسـان مـا حولـه فـي الطبيعـة مـن الظواهر، وقد ذهب إليها أفلاطون وتابعوه من فلاسفة اليونان .[١]

هذا، وتعد نظرية المحاكاة في نشأة اللغة من أهم النظريات التي ذهب إليها كثيـر مـن فلاسـفة العصـور القديمـة والوسـطى، حيـث يـرون أن نشـأة اللغـة بـدأت محاكـاة للأصـوات الطبيعيـة، وتقليـدا للأصـوات المسموعة مـن الحيوانـات والأشـجار، وصوت الرعد، وغيره، وتقرر هذه النظريـة أن لغة المحاكـاة محدودة الألفاظ، قليلـة التنـوع، قريبـة الشـبه بالأصـوات الطبيعيـة التـي أُخـذت عنهـا، قاصـرة الدلالـة علـى المقصود، ومن ثم كانـت بحاجـة إلـى مسـاعد يصـحبها ليوضـح مدلولاتها، وكـان هذا المسـاعد الإشـارات اليدويـة، والحركـات الجسـمية، وهـي حركـات فطريـة تصـحب انفعالاتـه منـذ نشـأته، ثـم أخـذ نطـاق هـذه اللغـة يتسـع تبعـا لارتقـاء تفكيـر الإنسـان، وتعـدد حاجاتـه، ومظـاهر حضـارته، وكلمـا ارتقـى فـي سـلم الحضـارة اسـتغنى عـن مساعدة الإشارات بابتكار ألفاظ كاملة الدلالة ، وهو في كل طور يبتعد شيئا فشيئا عن أصول لغتـه الأولـى تحت تـأثير عوامـل كثيـرة ، كـالتطورات الطبيعيـة التـي تعتـور الصـوت وأعضـاء النطـق الإنسـاني، وكعلاقـات المجـاورة والمشـابهة التـي تعتـور الدلالات، وهكذا تمت لـه اللغة التـي تفي بحاجاتـه، ويرى المنتصرون لهذه النظريـة أنها تتفق في كثير من وجوهها مع سنن التطور والارتقاء التي تخضع لها الكائنات

(١) ينظر:المحاكـاة دراسـة فـي فلسـفة اللغـة العربيـة، ص ٩٨- ١١٢،وينظـر: المزهـر للسيوطي:١/١٦-٢٩ .

والنظم، ومن ذلك الارتقاء اللغوي عند الطفل، وهي أيضا تفسر إلى حد " ما " مشكلة النشأة الأولى للغة، بتوضيح الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة، والعوامل التي وجهته لهذا الأسلوب من دون غيره، وأنها تتفق مع ما نعرفه من خصائص اللغات في الأمم البدائية، التي تعتمد في تعبيرها على الأصوات والإشارات فقط، بحكم وجود التخلف الحضاري عندها.(١)

وقد عقد الدكتور صلاح حسنين في كتابه : (دراسات في علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن) أثناء عرضه لنظريات نشأة اللغة عنوانا استغنى به عن مصطلح المحاكاة، سماه : العلاقة بين اللفظ ومعناه، فكأن المحاكاة عنده عبارة عن علاقة طبيعية بين اللفظ ومعناه، وملخص كلامه : أنه قد ساد الاعتقاد في العصور القديمة بأن هناك علاقة وطيدة بين اللفظ ومعناه، لهذا كان اللفظ يقدس في هذه الحضارات.....، وساد الاعتقاد أن للكلمات قوة هائلة، وتأثيرا كبيرا، ولا يزال هذا الاعتقاد سائدا حتى الآن .....، وقد تبنى الفلاسفة الطبيعيون هذا الرأي، وقالوا : إن كل الكلمات كانت توافق بطريقة طبيعية مدلولاتها، ويرى الفلاسفة أن هذا الموقف لا يمكن أن تثبته العامة بسهولة ، ولكن الفلاسفة يستطيعون البرهنة عليه؛ لأنهم هم الذين يستطيعون الوصول إلى الحقيقة عن طريق البرهنة العقلية، ومن ضمن هذه الحقائق وصولهم إلى إثبات هذا الرأي، وهكذا نشأ البحث في الاشتقاق، وهو- أي الاشتقاق- مصطلح يعني عندهم الوصول إلى الحقيقة ومعرفة الواقع.....، ويذهب هؤلاء الفلاسفة إلى القول بأن العلاقة في بداية خلق اللغة كانت علاقة تسمية، حيث وضع لكل شيء في البداية لفظ كان عبارة عن تقليد بالصوت لما هو موجود مادة، وانفرد بالتالي كل شيء من الأشياء بدال، لا فرق

(١) ينظر: الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها، د. هادي نهر، ص ٥٨، ٥٩ .

جوهري بينه وبين مدلوله إلا عند الحواس، فالعين ترى الشيء، والأذن تسمع الصوت، وبذلك تكون الصورة السمعية مطابقة تمام المطابقة للصورة البصرية. (١)

ومما تجدر الإشارة إليه أن نظريات نشأة اللغة كلها قائمة على أساس فلسفي، يستند فيه العقل إلى حقيقة جزئية، ثم يبني عليها حقائق عامة، ويدعي صحتها، وينفي ما عداها، كما حدث عند فلاسفة الإغريق، وتبعهم في هذا فلاسفة اليونان، ومن أشهر فلاسفة اليونان الذين قالوا بالمحاكاة أفلاطون الذي رأى أن الاسم هو محاكاة لطبيعة الشيء في ذاته، فالاسم لا يمكن أن يأتي كيفما اتفق، بل لا بد من أن يكون صادرا عن شخص قادر على إطلاقه صحيحا محاكيا النموذج الأصلي، أو الشيء الحقيقي، ويرى أفلاطون أن الأسماء التي قد تبدو غير محاكية، هي بحقيقتها محاكية، غيرأن الزمن يفعل فعله في توسيع المسافة بين الكينونة الأصلية للاسم، والصيرورة التي أصبح عليها، عن طريق سيرورة حافلة بمؤثرات المعيش اليومي، إضافة إلى الأمر الآخر المتعلق بالحقائق الأصلية، وبالتالي لا يستطيع فعل المحاكاة الصحيح، ويفترض أفلاطون فرضا آخر لتبدل صورة الأسماء الأصلية بالإضافة إلى عاملي الزمن والجهل، وهو التفاعل الدائم بين الشعوب والحضارات، مما يكون له أثر جلي على طرائق التعبير، وبالتبعية على كيفية النطق بالأسماء.(٢) .

وبهذا تكون المحاكاة عند أفلاطون، ومن تبعه من فلاسفة اليونان قضية مسلم بها غير قابلة للشك، وقد اعتمد أفلاطون منهجا تأصيليا في كشف العلاقة بين الدال والمدلول، ذلك أنه حاول أن يفهم العلاقة بينهما مفترضا عدم وجود القدرة على الكلام عند الإنسان القديم، بحيث إنه كلما أراد أمرا أشار إليه بعضو من

(١) ينظر: دراسات في علم اللغة (الوصفي والتاريخي والمقارن)، ص ٤١،٤٢.

(٢) ينظر: المحاكاة دراسة في فلسفة اللغة العربية، د. خالد سعد كموني، ص ١٠٤،١٠٧ .

أعضائه، فالمحاكاة الجسدية لها دور كبير في إيجاد عملية التواصل.[١] ." كما أخذ سقراط – وهو أستاذ أفلاطون – يمنِّي النفس بتلك اللغة المثالية التي تربط بين ألفاظها ومدلولاتها ربطا طبيعيا ذاتيا كتلك الألفاظ المشتقة من أصوات الطبيعة من حفيف وخرير، وزفير"[٢] .

وقد انتقد الدكتور إبراهيم أنيس تلك النظرية الأفلاطونية في علاقة الاسم بالمسمى قائلا:" ولما تبين لهم غموض الصلة بين ألفاظ لغتهم اليونانية ومدلولاتها، ولم يستطيعوا لها تعليلا مقبولا تستريح إليه النفس وتطمئن له العقول، أخذوا يفترضون أن تلك الصلة الطبيعية كانت واضحة سهلة التفسير في بدء نشأتها، ثم تطورت الألفاظ، ولم يعد من اليسير أن نتبين بوضوح تلك الصلة، أو نجد لها تعليلا وتفسيرا ".[٣]

وأتفق مع الدكتور إبراهيم أنيس في رفض التعميم لهذه النظرية، إذ هي جزء من كل، فهناك ألفاظ جاءت عن طريق المحاكاة ، وأخرى اصطلاحية ، وأخرى توقيفية، وكل هذه النظريات مرتبط أساسا بالغريزة الإنسانية التي وضعها الله– تعالى– في الإنسان، فقد جعل له لسانا وشفتين، وعن طريقهما يمكن التفاعل بين أفراد المجتمع عن طريق التقليد والاصطلاح والتعلم، ويؤخذ من هذا أن المحاكاة ليست أصلا في نشأة اللغة، وجميع النظريات أصل فيها، ومكملة لبعضها .

(١) ينظر: المحاكاة دراسة في فلسفة اللغة العربية ، ص ١٠٨.

(٢) دلالة الألفاظ، ص ٦٣ .

(٣) ينظر: المرجع السابق: الصفحة نفسها.

ثانيا : موقف ابن جني من هذه النظرية :

لقد اتسعت حركة الترجمة في العصر العباسي، وتم نقل الكثير من العلوم اليونانية إلى اللغة العربية عن طريق اللغة السريانية، وكان من ضمن العلوم التي تم نقلها علم الفلسفة، وكان لهذا العلم أثر بالغ عند علماء المسلمين في شتى ميادين المعرفة، ومن بينها علم اللغة بفروعه المتنوعة، وقد" عرف العرب أفلاطون من خلال معرفتهم بالتراث الفلسفي اليوناني بصورة عامة، وقد وصل إليهم هذا التراث عن أكثر من طريق، لكن أبرز هذه الطرق التي انتقل منها هذا التراث، ومعه كتب أفلاطون وأفكاره هو طريق المدارس السريانية، وخاصة مدرسة حرّان، ومدرسة أنطاكية التي نقلت إليها مكتبة الإسكندرية في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، إضافة إلى الكنائس المسيحية المنتشرة في الشام وما بين النهرين " [(١)] . ويدل على معرفة العرب بالتراث اليوناني – لا سيما كتب أفلاطون – تلك الكتب التي تحدثت عن كتبه، كالفهرست لابن النديم، ونزهة الأرواح للشهرزوري، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وغيرها .[(٢)]

وقد تلقى علماء المسلمين تلك الآراء الفلسفية بالقبول تارة، وبالرفض تارة أخرى فمن العلماء الذين رسموا صورة سلبية للفلسفة، وقلل من أهميتها العلامة ابن خلدون[(٣)] ، ومن العلماء الذين قبلوها ونسجوا على منوال أصحابها : ابن رشد وابن سينا، والفارابي، والرازي، وغيرهم ، وقد أكد الصنعاني أن أساليب العرب

(١) فلسفة اللغة عند أفلاطون ومعه نص محاورة كراتيليوس (دراسة وترجمة)، د.عزمي طه"السيد أحمد" ص٢٣.

(٢) ينظر السابق : ص٢٣،٢٤.

(٣) ينظر: مقدمة ابن خلدون : ص ٥١٤ – ٥١٨ .

مستمدة من أساليب القرآن التي تخالف أساليب اليونان، وأساليب القرآن هي ملهمة طرق البحث العربي. [١]

إذًا نحن أمام تيارين مختلفين تماما، فريق ينكر التأثر، ويراه منقصة وقدحا، وآخر يؤكده ويراه أمرا طبيعيا بين الثقافات عند التقارب والاتصال، والحق أن التأثر لا ينكره منصف، إذ هو ليس عيبا ولا نقصا، إنما العيب هو الانغماس والذوبان في الثقافات الدخيلة، وعدم إضافة لبنات إلى صرحها وبنائها، وأجزم أن علماء العرب كانت لهم شخصيتهم المستقلة حين تناولوا تلك العلوم الوافدة، وأدلوا فيها بدلوهم وطبقوها بما يتناسب مع ثقافتهم ولغتهم في جميع مجالات المعرفة .

وكان من ضمن القضايا اللغوية الفلسفية التي نقلت إلى العربية قضية نشأة اللغة التي تكشف عن طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول، ويعد ابن جني من أبرز فلاسفة اللغويين العرب، فضلا عن مذهبه الاعتزالي القائم على الفلسفة والجدل، إذًا ليس من العجيب ولا من الغريب أن يطلع رجل مثله على جميع الثقافات القائمة حوله، لا سيما الثقافة اليونانية التي كانت محل تقدير وإعجاب عند كثير من العلماء في عصره، وقد ظهر أثر تلك الثقافة في كتابه الخصائص، حيث "يعد ابن جني من علماء تلك الفترة الذين اسهموا في إضافة شيء إلى النظرية اللغوية العربية ، كونه لم يكتف بتكرار الآراء المطروحة، أو عرضها كونها ثقافة في اللغة السائدة، بل نجده قد عرض تلك الآراء محاولا إضافة بعض الطرافة حين يقررأن اللغة قد نشأت بفعل طبيعي محاكاتي، وهذا الرأي كان بمثابة المنطلق النظري لمعالجة مسألة نشوء اللغة وتركيباتها المتولدة فيما بعد".[٢]

(١) ينظر : مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، د.علي سامي النشار، ص ٢٢١ .

(٢) المحاكاة دراسة في فلسفة اللغة العربية، ص١١٨.

ويعد ابن جني أول علماء العربية عرضا لتلك النظرية اللغوية (المحاكاة) في كتابه (الخصائص)، وإن كان كلامه يوحي بمعرفة تلك النظرية عند العلماء السابقين، ويبدو أنها كانت عند غيره إشارات من دون تأصيل، وأنه هو صاحب الجمع والتنظيم، والتنظير، والاستقصاء، والإثبات، فقال : " وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوِيّ الريح، وحنينِ الرعد، وخرِير الماء، وشحِيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزِيبِ الظبي، ونحو ذلك ثم ولدتِ اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبَّل"(١)، ولكنه لم يستقر على هذا الرأي أيضاً بعد أن ناقش الرأيين السابقين (التوقيف والاصطلاح)، والأسلم ألا ننسب الرجل إلى مذهب بعينه من المذاهب الثلاثة"(٢)

فقد كان دائم التفكر والتدبر في هذه القضية، ولم يتعصب لرأي من الآراء، حتى وإن استند هذا الرأي إلى أدلة دينية، فَهَمُّه الوصول إلى الحقيقة أنَّى وُجدت، ولذا تراه يقول: "واعلم فيما بعدُ، أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعي والخوالِج قويّة التجاذب لي، مختلفة جِهاتِ التغوّل على فكرى، وذلك أنني إذا تأّملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقّة والإرهاف والرقّة ما يملك علىّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوةِ السحر، فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا – رحمهم الله – ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحّة ما وفَّقوا لتقديمه منه ولطفَ ما أُسعدوا به وفرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند اللّه – جل وعز –، فقوى في نفسى اعتقاد كونها توقيفاً من الله– سبحانه– وأنها وحي، ثم أقول في ضدّ هذا كما وقع لأصحابنا ولنا، وتنبهوا وتنبهنا

(١) الخصائص :١/٤٦،٤٧.

(٢) ينظر : بحوث في اللغة بحث بعنوان: (اللغة العربية التحديات والمواجهة) للأستاذ. سالم مبارك الفلق، ص ٥ .

على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قَبلنا – وإن بعد مداه عنا – مَن كان ألطف منا أذهانا، وأسرع خواطر، وأجرأ جَنَاناً، فأقف بين تين الخَلّتين حسيراً وأكاثرهما فأنكفئ مكثوراً. وإن خطر خاطر فيما بعد يعلّق الكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به، وبالله التوفيق " . [1]

من خلال هذا النص ذهب بعض الباحثين العرب إلى أن ابن جني يفتقر إلى رؤية لغوية موحدة، فيقول: "وقد جمع ابن جني في تراثه منهج أهل اللغة ومنهج أهل النظر. فهو لغوي فذ، كما أنه معتزلي كبير، إلا أنه لم يخرج عن سنن اللغويين في تحليله للظواهر ولم يلحق بأهل النظر في تفسيرهم لنشأة اللغة. وربما كان امتزاج هذين الموروثين في نفسه سبباً في اضطراب رؤيته اللغوية العامة. وأول ما يلقانا في عرضه للنظريات الثلاث السابقة : (التوقيفية، الاصطلاحية أو التواطئية المحاكاة) تردده في الإيمان بواحدة منها، وتأرجحه بينها.إنه لا يعرض في البدء غير نظريتين : الإلهية والتواطئية؛ ونخلص من هذا كله إلى أن رؤية ابن جني اللغوية ليست سوية ولا مطردة، بل ليست موحدة. وعلة ذلك عندي شيئان :

أولهما: أن البحث في أصل اللغة سيقود حتماً إلى مثل هذه الرؤى المضطربة.

وثانيهما : أن الموروث اللغوي والفلسفي قد غمس ابن جني في تياره، فما استطاع أن ينجو منه ولا استطاع أن يحوّل مجراه".[2] .

وقد رد الدكتور جعفر دك الباب هذا النقد بقوله :" إننا نرى أن ابن جني قد انطلق في كتابه (الخصائص) من منطلق بنيوي حين بحث في نطاق الكلمة المفردة، وأوصله ذلك المنطلق إلى ضرورة أخذ عامل الزمن بعين الاعتبار، ولو لم يصرح بذلك دائماً؛ لأن الاشتقاق يرتبط حتماً بالزمن. ولدى البحث في التقليبات

(١) الخصائص : ٤٧/١.

(٢) بحوث في اللغة بحث بعنوان" أصالة اللسان العربي " د . جعفر دك الباب ص ٣٢٢ .

الممكنة للكلمة الواحدة اكتشف أن الشيء الذي يجمع تلك التقليبات هو وحدة المعنى. ولدى البحث في النظريات المتعلقة بنشأة اللغات، ذكر ابن جني نظرية التوقيف وناقشها، كما ذكر نظرية الاصطلاح وناقشها. ولكنه لم يجزم في الأخذ بواحدة منهما، بل جوّزهما معاً. ويرجع ذلك – برأيي – إلى أن اهتمام ابن جني كان منصباً على اكتشاف القوانين التي تنظم اللغة وتوضح أسباب الأخذ ببعض التقليبات وترك بعضها الآخر، فيقول مثلاً: "أما إهمال ما أُهمل مما تحتمله قسمة التركيب في بعض الأصول المتصورة أو المستعملة، فأكثره متروك للاستثقال وبقيته ملحقة به ومقفاة على أثره "[1]. وبما أن الجزم في الأخذ بإحدى النظريتين (التواضع أو الإلهام) لا يغير من حقيقة القوانين اللغوية واتساقها، فقد جوّزهما ابن جني على حد سواء. ولكنه أكدّ بشكل قاطع على أمرين :

١ – لم تنشأ اللغة في وقت واحد، بل نشأت في أوقات متلاحقة .

٢ – كانت اللغة باستمرار تحافظ على اتساق قوانينها .

فقال في باب (في هذه اللغة: أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط؟) ما يلي : " قد تقدم في أول الكتاب القول على اللغة : أتواضع هي أم إلهام؟ وحكينا وجوّزنا الأمرين جميعاً. وكيف تصرف الحال؟، وعلى أي الأمرين كان ابتداؤها؟ فإنها لا بدّ أن يكون وقع في أول الأمر بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعي إليه، فزيد فيها شيئاً فشيئاً، إلا أنه على قياس ما كان سبق منها في حروفه وتأليفه وإعرابه المبين عن معانيه لا يخالف الثاني الأول"[2].

وهكذا نرى أن ابن جني قد استطاع بمنهجه اللساني العلمي أن يكتشف من ناحيةٍ عامل الزمن الذي تجلى في أن نشأة اللغة لم تتم في وقت واحد، بل بدأت، ثم

(١) الخصائص: ٥٤/١ .

(٢) الخصائص :٢٨/٢، وينظر: أصالة اللسان العربي : ص٣٢٣ .

اكتملت في أوقات متلاحقة. كما استطاع أن يكتشف من ناحية أخرى اتساق النظام اللغوي. وقد حاول ابن جني أن يوحد هذين الجانبين (التطوري والتزامني) في إطار واحد بفرض أن واضع اللغة قد عرف سلفاً ما يتعارض مع النظام العام للغة فطرحه جانبا، وعرف ما ينسجم مع ذلك النظام فأبقاه، فقال:" اعلم أن واضع اللغة لما أراد صوغها وترتيب أحوالها، هجم بفكره على جميعها، ورأى بعين تصوره وجوه جملها وتفاصيلها، وعلم أنه لا بدّ من رفض ما شنع تألفه منها .[١]

وهكذا نرى أن رؤية ابن جني اللغوية فذة وموحدة (غير مضطربة)؛ لأنها علمية تنطلق من منطلق صوتي (مادي) وفهم منظومي للغة؛ وهذا هو السبب في أن ابن جني قد تبوأ في الماضي ذروة الدرس اللغوي، ويجب أن يتبوأ في الحاضر المكانة التي يستحقها في علم اللسان الحديث إذا استطعنا أن نكشف عن قيمة دراساته اللغوية الرائدة في ضوء منجزات اللسانيات الحديثة [٢] .

والحق مع هذا الرأي؛ لأن القطع برأي في قضية حدسية تخمينية يتنافى مع الواقع اللغوي، ويتجافى مع البحث العلمي، فالآراء جميعها قائمة على الحدس والتخمين فالأولى الجمع بينها لا التفريق، فابن جني في هذه القضية متماش مع الواقع اللغوي، ولم يكن مضطربا ولا مشوشا . "وهذا لا يمانع أن يكون الله سبحانه وتعالى هو ملهم الأصوات ، ومنشئ اللغات ، ومعلم الكائنات ، فهذا هو الاعتقاد الصحيح الذي لا تشوبه شائبة ، فالكلام عن هذا شيء والبحث عن أصل اللغات في انطلاق الأصوات شيء آخر " .[٣]

(١) الخصائص : ٦٤/١، وينظر: أصالة اللسان العربي : ٣٢٤، ودلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس: ص ٣٠،٣١ .

(٢) أصالة اللسان العربي : ص ٣٢٤ .

(٣) مخارج الحروف عند ابن جني، جمع وترتيب: بندرين عبدالله الثبيتي، ص٦ .

المبحث الثاني
أثر نظرية المحاكاة في
تفريعات العلاقة بين الدال والمدلول عند ابن جني

لقد سبق القول بأن ابن جني– رحمه الله – قد ارتضى أكثر من مذهب لنشأة اللغة الإنسانية بصفة عامة ، ووصف نظرية المحاكاة بالقبول والرضا، وقد كان لقبوله هذه النظرية الفلسفية أثر كبير في اختراع تفريعات لغوية تكشف عن العلاقة بين الدال والمدلول، ولم يعدم ذلكم الفيلسوف الفذ والعالم النحرير إيجاد نماذج في لغتنا العربية تعضد فكرته وتقويها، فقد بنى في كتابه الخصائص بابا على أساس نظرية المحاكاة، وسماه:(إمساس الألفاظ أشباه المعاني) كشف فيه عن العلاقة بين الأصوات ومعانيها، في إطار فلسفي عجيب، يكشف عن قدرة عالية في استجلاء أسرار اللغة، والكشف عن غوامضها ومكنونها، ولم يستطع ابن جني – رحمه الله – إنكار جهد السابقين، فقد أقر ذلك بنفسه، واعترف بفضل أستاذه الجليل أبي علي الفارسي في كثير من المواضع، وكذلك الخليل بن أحمد، وتلميذه سيبويه، وهاكم الباب وتفريعاته :

١- إمساس الألفاظ أشباه المعاني:

قال عنه ابن جني : "اعلم أن هذا موضع شريف لطيف وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه وتلقَّته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحّتِه قال الخليل: كأنهم توهّموا في صوت الجُنْدُب استطالة ومدّا فقالوا : صَرَّ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا : صرصر، وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة نحو النَقَزان والغليان والغثيان، فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سَمْت ما حدّاه ومنهاج ما مثَّلاه وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعَّفة تأتى للتكرير، نحو: الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، والقعقعة، والصعصعة والجرجرة، والقرقرة، ووجدت أيضا (

الفَعَلى) في المصادر والصفات إنما تأتى للسرعة، نحو: البَشَكَى والجَمَزَى والوَلَقَى ....فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر – أعنى باب القلقلة – والمثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت الحركات فيها "[1]

ونستنتج من هذا النص عدة حقائق :

١– أن ابن جني لم يكن أول من تكلم عن هذه النظرية، بل كانت في وجدان الكثير من العلماء السابقين، بيد أنه قد ضبطها وفصّلها وشرحها، واستخدم القياس في استحضار كثير من الأمثلة التي تدل على هذه النظرية وتدعمها.

٢– أن المعاني في مثل هذه الأمثلة سابقة للألفاظ وأساس لها، وهذه قضية جدلية أثارها كثير من العلماء قديما وحديثا، ويمكن تجلية هذه الحقيقة عن طريق شرح بعض الأمثلة التي ذكرها ابن جني، فهاكم (الزلزلة) التي تدل على اهتزاز أرضي وعدم استقرار، فلا نراها إلا معبرة عن صورة مشاهدة ومرئية ، فعندما رأى الإنسان العربي القديم هذا الحدث حاكاه لفظا، فبدأ بمقطع صوتي مغلق يعبر عن بداية الواقعة، وهو الاهتزاز الأول المباغت، ثم لما توالى الحدث واستمر، عبر عنه بمقطعين مفتوحين من جنس المقطع الأول ليدل على المتابعة والاستمرار، وهذا مرتبط ارتباطا وثيقا بالغريزة التي أودعها الله في هذا المخلوق الناشئ ، ومن ذلك قولهم : صرّ للجندب، وصرصر للبازي، وقد علل القدماء لهذا الاختلاف بين اللفظين باختلاف صوتهما، فصوت الجندب به مد واستطالة يناسبه اللفظ المكون من مقطعين :

أولهما : مغلق (صَرْ) مكون من صامت + صائت قصير+ صامت.

الآخر : مكون من مقطع مفتوح(رَ) صامت + صائت قصير،وأعتقد أن المد والاستطالة الموجودة في صوت الجندب جاء نتيجة المقطع المفتوح إضافة إلى الراء

(١) الخصائص :٢/١٥٢،١٥٣.

المتصف بصفة التكرار، أما البازي فله صوت مختلف، ولذا ناسبته المقاطع المكررة الدالة على التكرار، ويقاس على هذا جميع الأفعال والمصادر الرباعية المكررة، فكلها تأتي محاكاة للطبيعة ، سواء أصدرت عن جماد، أم إنسان، أم طائر، أم حيوان، فيقال: زقّ وزقزق، وهزّ وهزّهز، ودقّ ودقدق، وفرّ وفرفر، ودمّ دمدم، وخرّوخرخر، وبأ وبأبأ، وصوّ وصوصو، ونقّ ونقنق، ونوّ ونونو، وعوّ وعوعو، ونهنه، وخنّ وخنخن .....الخ .

٣- أن ابن جني جعل من قبيل المحاكاة تلك الصفات والمصادر متحركة الحروف تتابعا، فهي تدل على الحركة المضطربة، إذ ليس فيها ثبات. وتجدر الإشارة إلى أن هناك تشابها ليس باليسير بين هذه الظاهرة الطبيعية وبين سابقتها، فكلاهما ليس فيه استقرار . فمحاكاة الطبيعة من قبيل الإمساس عند ابن جني .

وقد تفرع من هذا الباب فروع لها علاقة وطيدة بالمحاكاة، هي :

أولًا : زيادة المبنى لزيادة المعنى :

قال ابن جني:" ومن ذلك – وهو أصنع منه – أنهم جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب، نحو: استسقى، واستطعم، واستوهب، واستمنح، واستقدم عمرا، واستصرخ جعفرا، فرتّبت في هذا الباب الحروفُ على ترتيب الأفعال . وتفسير ذلك أن الأفعال المحدّث عنها أنها وقعت عن غير طلب إنما تفجأ حروفُها الأصولُ، أو ما ضارع بالصنعة الأصول، فالأصول نحو: قولهم: طعِم، ووهب، ودخل، وخرج،وصعِد ونزل، فهذا إخبار بأصول فاجأت عن أفعالٍ وقعت ولم يكن معها دلالة تدلّ على طلب لها، ولا إعمال فيها، وكذلك ما تقدّمت الزيادة فيه على سَمْتِ الأصل نحو أحسن وأكرم وأعطى وأولى، فهذا من طريق الصنعة بوزن الأصل في نحو: دحرج وَسَرْهف وقَوْقَى وزَوْزَى، وذلك أنهم جعلوا هذا الكلام عبارات عن هذه المعاني، فكلما ازدادت العبارة شَبَهًا بالمعنى كانت أدلّ عليهِ، وأشهد بالغرض فيهِ، فلمّا كانت إذا فأجأت الأفعال فاجأت أصول المُثل الدالة عليها، أو ما جرى مجرى

أصولها، نحو: وهب، ومنح، وأكرم، وأحسن، كذلك إذا أخبرت بأنك سعيت فيها وتسببّت لها وجب أن تقدّم أمام حروفها الأصول في مُثُلها الدالّة عليها أحرفا زائدة على تلك الأصول، تكون كالمقدّمة لها، والمُؤدِّية إليها، وذلك نحو: استفعل، فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد، ثم وردت بعدها الأصول (الفاء والعين واللام)، فهذا متن اللفظ وَفْق المعنى الموجود هناك، وذلك أن الطلب للفعل، والتماسَه، والسعي فيه والتأتي لوقوعه تقدّمه، ثم وقعت الإجابة إليه، فتبع الفعلُ السؤالَ فيهِ والتسّبب لوقوعه، فكما تبِعت أفعال الإجابة أفعالَ الطلب، كذلك تبعت حروفُ الأصل الحروفَ الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة، وذلك نحو: استخرج، واستقدم، واستوهب، واستمنح، واستعطى، واستدنى، فهذا على سَمْتِ الصنعة التي تقدّمت في رأى الخليل وسيبويه، إلا أن هذه أغمض من تلك، غير أنها وإن كانت كذلك، فإنها منقولة عنها، ومعقودة عليها، ومن وجد مقالا قال به وإن لم يسبق إليهِ غيره، فكيف به إذا تبع العلماء فيهِ، وتلاهم على تمثيل معانيه !!!!"[1]

ونستخلص من هذا النص أموراً:

١- كما اعترف ابن جني بوجود المحاكاة الطبيعية بين الدال والمدلول، فإنه يقرر هنا وجود محاكاة بينهما، ولكنها محاكاة من نوع آخر، تلك المحاكاة اللفظية للمعنى المراد، فيأتي ترتيب الحروف مناسبا لترتيب المراد، وهي تعبر عما يجيش في نفس الإنسان من آمال وتطلعات، وقد وصف ابن جني هذه الظاهرة اللغوية في العلاقة بين الدال والمدلول بأنها أصنع مما ذكره الخليل وسيبويه .

٢- لم ينكر ابن جني على القدماء اجتهادهم، ورأى أن من حق المتأخرين الاجتهاد والقياس على ما فعله المتقدمون، فالنظريات العلمية عنده يكمل بعضها بعضا، ولا تقف عند جيل من دون آخر، وإلا أصيب العلم بالجمود، ويفهم هذا من

(١) الخصائص:٢/١٥٣،١٥٤.

قولـه:" فهذا على سَمْتِ الصنعة التي تقدّمت في رأى الخليل وسيبويه، إلا أن هذه أغمض من تلك غير أنها وإن كانت كذلك فإنها منقولة عنها ومعقودة عليها، ومن وجد مقالا قال به وإن لم يسبق إليهِ غيره، فكيف به إذا تبع العلماء فيهِ وتلاهم على تمثيل معانيه ".

٣- حروف الزيادة الواقعة ابتداء تدل على معنى لم يكن موجودا من دونها، فالألف والسين والتاء تدل على الطلب، والالتماس، والمسألة،وكما أن الطلب يسبق الإجابة فكذلك الحروف الزائدة القائمة مقامه تسبق الحروف الأصول.

ثانياً : **قوة اللفظ لقوة المعنى**:

وهذه فكرة فلسفية لها ارتباط وثيق بالمحاكاة، يقول ابن جني:" ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير الفعل فقالوا كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق . وذلك أنهم لمّا جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل بهِ قوّة الفعل والعين أقوى من الفاء واللام وذلك لأنها واسطة لهما ومكنوفة بهما فصارا كأنهما سِيَاج لها ومبذولان للعوارض دونها ..... فلمّا كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلا على قوّة المعنى المحدَّث به، وهو تكرير الفعل، كما جعلوا تقطيعه في نحو : صرصر، وحقحق، دليلا على تقطيعه ..... فهذا طريق المُثُل واحتياطاتُهم فيها بالصنعة، ودلالاتهم منها على الإرادة والبِغْيةِ "[١]

(١) الخصائص : ١٥٦/٢.

نفهم من نص ابن جني السابق أمورا عدة :

١- أن أصول الألفاظ العربية عنده مكونة من ثلاثة أحرف : حرف يبتدأ به، وحرف يحشّى به، وحرف يوقف عليه، وهذا مذهب كثير من اللغويين والصرفيين.

٢- أن عين الكلمة عنده أقوى من فائها ولامها؛ لأنها محصنة بهما ، كما أنها أقدرعلى تحمل التضعيف والتكرار من دونهما، الأمر الذي يترتب عليه قوة في المعنى،فالدلالة الزائدة متوقفة عليه، فكل ما جاء على فعّل أفاد التكرار، والإعادة .

٣- أن ابن جني قد استقى هذه الدلالة من نظرية المحاكاة، وقاسها على الإمساس فكما دل اللفظ المُقَطَّع على تقطيع المعنى، دل اللفظ المُكرّر على تكراره، وهذا كله يؤكد العلاقة الطبيعية بين الدال ومدلوله .

٤- أنه قد أرجع هذا الأمرإلى حذاق العربية والمغرمين بها ، والقادرين على استجلاء خباياها بالصنعة والتدبر، وعدم الوقوف بها عند حد معين ، ويتضح ذلك من دعوته المتكررة إلى التفكر في هذه اللغة التي تحمل سحرا يجعلها في منزلة متفردة ومنفردة .

٥- هذا دليل ثانٍ على أن المعاني سابقة للألفاظ عند ابن جني .

ثالثاً : مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث :

وفي هذا الباب يعطي ابن جني قيمة تعبيرية للصوت، تفوق المراحل السابقة وجعل هذا مرتبطا بقضية المحاكاة، مما يدل على عبقرية هذا الرجل وتبحره في تلك اللغة التي لا تكاد تنفد كنوزها وجواهرها، فقال – رحمه الله –: " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فباب عظيم واسع، ونَهج مُتلِئّب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سَمْتِ الأحداث المعبرَّ بها

عنهـا، فيعـدلونها بهـا ويحتـذُونها عليهـا ، وذلـك أكثـر ممّـا نقـدّره وأضـعاف مـا نستشعِره"[1].

ونستطيع أن نستخلص من هذا النص أمورا :

١- أن هذا النوع من المحاكاة باب واسع، ونهج معروف عند المتخصصين في جانب اللغة، فلم ينسبه ابن جني لنفسه، مما يدل على أمانته العلمية، واعترافه بالسبق والفضل لذويه.

٢- اعتراف ابن جني بالصنعة في هذا النوع، إذ لم يأت مواضعة واصطلاحا، ولا وحيا وتوقيفا، وإنما جعل اللغة محاكية لأصوات الأحداث الموجودة بالفعل، واختار لكل حدث صوته الذي يعبرعنه، تبعا لصفات الحرف وخصائصه، وهذا دليل آخر على أسبقية المعاني للألفاظ المعبرة عنها .

٣- جعل ابن جني باب الاجتهاد مفتوحا في هذا الجانب، فما استشعره هو والسابقون نقطة من بحر، وجزءمن كل، فلا يزال الأمرقابلا للتفتيش والتنقيب .

٤- أن ابن جني قد أعطى للحرف دلالة صوتية، ولكن في إطار بنيته اللفظية، فلا دلالة له منفردا، وبهذا يعد ابن جني من السابقين في تأسيس المنهج البنيوي الذي يساعد على معرفة العلاقة بين الدال والمدلول . فالكلمة تدل على المعنى مجتمعة، ولكن عند التحليل يجوز فك المتجمع إلى حروف، وبيان صفة كل حرف وما يؤديه من دلالة . فالحرف يدل على المعنى في ظل بنيته .

وقد ضرب ابن جني أمثلة على هذا النوع وقام بشرحها فقال "من ذلك قولهم: خَضم وقضم، فالخَضْم لأكل الرَّطْب كالبِطّيخ والقثَّاء، وما كان نحوهما من المأكول الرَطْب، والقَضْم للصُلْب اليابس، نحو: قضمتِ الدابَّة شعيرها، ونحوذلك وفي الخبر

(١) الخصائص : ١٥٧/٢ .

قد يُدْرَك الخَضْم بالقَضْم، أي: قد يدرك الرخاء بالشدّة واللين بالشَظَف ..... فاختاروا الخاء لرخاوتها للرَّطْب، والقافَ لصلابتها لليابس، حَذْواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث، ومن ذلك قولهم : النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح، قال الله سبحانه :{ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ}(١)، فجعلوا الحاء؛ لرقّتها للماء الضعيف والخاءَ؛ لغِلَظها، لما هوأقوى منه، ومن ذلك القَدّ طُولا والقط عَرْضا؛ وذلك أن الطاء أحصر للصوت، وأسرع قطعا له من الدال، فجعلوا الطاء المناجِزة لقطع العَرْضِ لقربه وسرعته، والدالَ المماطِلة لِما طال من الأثَر، وهو قطعه طولا ، ومن ذلك قولهم : قَرَتَ الدمُ، وقرِد الشيء وتقرّد وقَرَط يَقْرُط، فالتاء أخفت الثلاثة فاستعملوها في الدم إذا جَفّ لأنه قَصْد ومستخَفّ في الحِسّ عن القَرْدَد الذي هو النِبَاك في الأرض ونحوها، وجعلوا الطاء، وهي أعلى الثلاثة صوتا للقِرط الذي يسمع، وقرِد من القِرْدِ؛ وذلك لأنه موصوف بالقِلّة والذِلّة، قال الله تعالى :{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}(٢).....ومن ذلك قولهم: الوَسِيلة والوَصِيلة، والصاد – كما ترى – أقوى صوتا من السين لما فيها من الاستِعلاء، والوَصِيلةُ أقوى معنىً من الوسيلة؛ وذلك أن التوّسل ليست له عِصْمة الوصل والصلةِ، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء ومماسَّتِه له، وكونه في أكثر الأحوال بعضا له، كاتّصال الأعضاء بالإنسان، وهي أبعاضه، ونحو ذلك، والتوّسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسِّل جزء أو كالجزء من المتوسَّل إليهِ، وهذا واضح، فجعلوا الصاد لقوّتها للمعنى الأقوى، والسين لضعفها للمعنى الأضعف، ومن ذلك قولهم : الخذا في الأُذُن، والخذأ : الاستخذاء، فجعلوا الواو في خذواء؛ لأنها دون الهمزة صوتا للمعنى الأضعف، وذلك أن استرخاء الأذن ليس من العيوب التي يُسبّ بها ولا يُتناهى في استقباحها، وأما الذلّ فهو من أقبح العيوب وأذهبها في المَزْراةِ والسبّ، فعبّروا عنه

(١) الرحمن : الآية (٦٦) .

(٢) البقرة : آية (٦٥) .

بالهمزة؛ لقوّتها، وعن عيب الأذن المحتمل بالواو؛ لضعفها . فجعلوا أقوى الحرفين لأقوى المعنيين، وأضعفَهما لأضعفهما ، ومن ذلك قولهم : قد جفا الشيء يجفو وقالوا جفأ الوادى بغُثَائه، ففيهما كليهما معنى الجفاء؛ لارتفاعهما، إلا أنهم استعملوا الهمزة في الوادِى؛ لِمَا هُناك من حَفزه وقوّة دفعه، ومن ذلك قولهم: صعد وسعد فجعلوا الصاد؛ لأنها أقوى لما فيه أثر مشاهَد يُرىَ، وهو الصعود في الجبل والحائط، ونحو ذلك، وجعلوا السين؛ – لضعفها – لما لا يظهر ولا يشاهَد حِسّا، إلا أنه مع ذلك فيه صعود الجَدّ لا صعود الجِسم، ألا تراهم يقولون : هو سعيد الجَدّ، وهوعالي الجَدّ، ارتفع أمره وعلا قَدْره، فجعلوا الصاد لقوّتها مع ما يشاهَد من الأفعال المعالَجة المتجشَّمِة، وجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس، وإن لم تره العين، والدلالة اللفظية أقوى من الدلالة المعنوية، فإن قلت : فكان يجب على هذا أن يكون الخذا في الأُذن مهموزا، وفي الذلّ غير مهموز؛ لأن عيب الأُذن مشاهد وعيب النفس غير مشاهد . قيل : عيب الأذن – وإن كان مشاهدا–، فإنه لا علاج فيه على الأُذُن، وإنما هو خمول وذبول، ومشقّة الصاعد ظاهرة مباشِرة معتدّة متجّشمة فالأَثر فيها أقوى؛ فكانت بالحرف الأقوى – وهو الصاد – أحرى "[1] .

فألحظ في الأمثلة السابقة أن ابن جني قد حاول الانتصار لفكرته قدر استطاعته فجاءت تعليلاته مستقيمة وسهلة مع بعض الأمثلة، فإن صعب التعليل أعمل فكره الفلسفي وبحث عن مخرج ومسوغ يرضي ما أقره وما أسس له سلفا، كما حدث مع الخذا والخذأ، ومع ذلك لم تخل مناقشته من متعة وإمتاع، ولا يبتعد ذلك كثيرا عن فلسفة أفلاطون، ومحاوراته مع كراتيليوس .

ثم ختم ابن جني هذا النوع من العلاقة بين الدال والمدلول بقوله :" فاعرف ذلك فهذا ونحوه أمرإذا أنت أتيته من بابه، وأصلحت فكرك لتناوله وتأمّله، أعطاك

(١) الخصائص : ٢/١٥٧-١٦١.

مَقادته وأركبك ذروته، وجلا عليك بَهجاتِه ومحاسنَه، وإن أنت تناكرته، وقلت : هذا أمر منتشِر، ومذهب صعب موعِر، حرمت نفسك لذّته، وسددت عليها باب الحُظْوة به ." [1]

رابعاً : سوق الحروف على سمت المعنى المقصود :

ولم يقف ابن جني عند هذا الحد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حين أضاف إلى مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث بعدًا آخر، وكأني بهذا الرجل لا يريد أن يقف باللغة وسحرها عند حد، ولا يرضيه منها إلا ما يفوق الحد، فيقول رحمه الله – : " نعم ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع، وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف، وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّرعنها بها ترتيبهَا وتقديم ما يضاهي أوّل الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي وسطه؛ سَوْقا للحروف على سَمْت المعنى المقصود، والغرض المطلوب "[2].

فأي صنعة هذه التي يريدها، وأي فكر هذا الذي يريد أن يقره ويقرره، فكأني أرى اللغة عنده كائنا حيا يحاكي أحداثا ووقائع، بداية وتوسطًا ونهاية، فهي مثل السلسلة المحكمة التي تتبع حلقاتها بعضها بعضا، فما تكاد أن تفرغ من حلقة وتحسن صنعتها وإحكامها، حتى تتبعها حلقة أخرى فتأخذ بلبابها، وتتعانق معها، فهل بعد ذلك ينكر مدع إيمان ابن جني بالمحاكاة؟، انظر إلى تلك الأمثلة التي ساقها تدليلا على صحة زعمه، وخلوص حجته، يقول ابن جني : " وذلك قولهم : بحث . فالباء لغلظها تُشبه بصوتها خَفقة الكفّ على الأرض، والحاء لَصحلها[3]،

(١) الخصائص : ١٦٢/٢.

(٢) الخصائص : ١٦٢/٢.

(٣) الصحل : الأبح الخشن . ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد:٥٤٢/١(ح ص ل)، والمخصص لابن سيده: ٢٧٢/٢.

تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما، إذا غارت في الأرض، والثاء للنفثِ والبث للتراب ." [1]

ويعلق على هذا المثال بقوله :" وهذا أمر تراه محسوسا محصَّلا فأيُّ شبهةٍ تبقى بعده، أم أيّ شك يعرض على مثله؟، وقد ذكرت هذا في موضع آخر من كتبي لأمرٍ دعا إليه هناك . فأمّا هذا الموضع فإنه أهله وحقيق به؛ لأنه موضوع له ولأمثاله " [2] .

فيستقى من هذا التعليق أمران :

أولهما : نفي الشك فيما ساقه من فلسفة تعليلية لترتيب الحروف داخل اللفظ .

ثانيهما : أن هذا النوع من المحاكاة من صميم الإمساس، الذي هو محور مهم من محاورها، فمكانه متجذرهنا، وإن ذكر في موضع آخر، فهو ذكر عارض استدعته الحاجة للتدليل على مسألة " ما " .

ثم تابع ذلك العالم الجليل أمثلته التي تدهش العقل، وتأخذ النفس إلى فلسفة رفيعة، وتحليل جذاب، اعتمد فيه على صفات الحروف وهيئتها، يقول ابن جني :" ومن ذلك قولهم : شدّ الحبل ونحوه، ف "الشين" بما فيها من التفشيّ تشبَّه بالصوت أوّل انجذاب الحبل قبل استحكام العَقْد، ثم يليه إحكام الشدّ والجذب وتأريب العقد فيعبرعنه ب "الدال" التي هي أقوى من الشين، لا سيما وهي مدغمة، فهو أقوى لصنعتها، وأدلّ على المعنى الذي أريد بها . ويقال شدّ وهو يُشِدّ . فأما الشدّة في الأمر فإنها مستعارة من شدّ الحبل، ونحوه لضرب من الاتّساع والمبالغة على حدّ ما نقول فيما يشبه بغيره؛ لتقوية أمره المراد به، ومن ذلك أيضا : جرّ الشيء يجره قدّموا الجيم لأنها حرف شديد، وأول الجرّ بمشقّةٍ على الجارّ والمجرور جميعا، ثم

(١) الخصائص: ٢/١٦٢،١٦٣.

(٢) السابق: الجزء والصفحة .

عقّبوا ذلك بالراء، وهو حرف مكرر، وكرّروها مع ذلك في نفسها؛ وذلك لأن الشيء إذا جُرّ على الأرض في غالب الأمر اهتزّ عليها واضطرب صاعدا عنها ونازلا إليها، وتكررذلك منه على ما فيه من التعتعة[١] والقلَقِ، فكانت الراء؛ لما فيها من التكرير؛ ولأنها أيضا قد كررت في نفسها في " جرّ " و " جررت " أوفقَ لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها، هذا هو محجَّة هذا ومذهبه ". [٢]

ثم يعلق ابن جني تعليلا يعمق الدلالة على تأثره الفلسفي، من منظورٍ ومنطوق أفلاطوني مصبوغ بنزعة فلسفية عربية خالصة، ومعبرة عن لغتنا تعبيرا أصيلا، فهي قائمة على المحاورة بينه وبين شخص جرده ؛ ليثبت له صدق ما ادعاه من إثبات فكرة المحاكاة الصوتية في نشأة اللغة الأولية، ونحن إذا أثبتنا التأثر، فلا ننفي التميز والتفرد في التطبيق، ولكل وجهة هو موليها.

يقول الفيلسوف العظيم :" فإن أنت رأيت شيئا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه ولا يتابعك على ما أوردناه، فأحد أمرين : إما أن تكون لم تنعِم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه أو لأن لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقصُر أسبابها دوننا كما قال سيبويه، أو لأن الأوّل وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر،فإن قلت : فهلاَّ أجَزْت أيضا أن يكون ما أوردته في هذا الموضع شيئا اتفق، وأمرا وقع في صورة المقصود من غير أن يعتقد، وما الفرق؟ قيل : في هذا حكم بإبطال ما دَلّت الدلالة عليه من حكمة العرب التي تشهد بها العقول، وتتناصرإليها أغراض ذوى التحصيل فما ورد على وجه يقبله القياس، وتقتاد إليه دواعي النظر والإنصاف حمل عليها ونُسِبت الصنعة فيه إليها، وما تجاوز ذلك فخفى لم تُوءسِ النفس منه، ووُكِل إلى مصادقة النظر فيه، وكان الأحرى به أن يتّهم الإنسان نظره، ولا يخِفّ

(١) التعتعة :الحركة العنيفة، والتعتعة في الكلام: العجز والعيُّ. ينظر:جمهرة اللغة ١٨٠/٥ (ت ع ت ع) .

(٢) الخصائص :١٦٣/٢، ١٦٤ .

إلى ادّعاء النقض فيما قد ثبت الله أطنابه، وأحصف بالحكمة أسبابه، ولو لم يُتنَّبه على ذلك إلا بما جاء عنهم من تسميتهم الأشياء بأصواتها، كالخازِبازِ لصوته، والبطِّ لصوته والخاقباقِ لصوت الفرج عند الجماع، والواقِ للصرد لصوته، وغاقِ للغراب لصوته، وقوله تداعين باسِم الشِيب لصوت مشافرها وقوله :

بَيْنَما نحنُ مُرْتِعون بفَلْجٍ .·. قالتِ الدُّلَّحُ الرِواءُ إنِيهِ [1]

فهذا حكاية لَرَزَمة السحاب وحنينِ الرعد وقولهِ :

كالبحر يدعو هَيْقَما وهيقما[2]

وذلك لصوته . ونحو منه قولهم : حاحيت، وعاعيت ، وهاهيت، إذا قلت : حاء وعاءِ وهاءِ . وقولهم : بسملت، وهيللت، وحولقت، كل ذلك، وأشباهه، إنما يرجع في اشتقاقه إلى الأصوات، والأمر أوسع"[3] .

وأقف هنا عند نقطة خاصة بحكمة العرب في وضع الألفاظ الدالة على المعاني، إذ يلحظ هنا تداخل بين نظريات : التوقيف، والمواضعة، والمحاكاة، فكأن المحاكاة قد جاءت مواضعة واصطلاحا ، والاصطلاح جاء توقيفا من الله – عز وجل – وهذا ما قررته ابتداء من إثبات التوفيق بين المذاهب المتنوعة، وهذا يجعلنا نقر

(١) البيت من الخفيف، وهو في كتاب العين: ١٨٣/٣(ح د ل)، واللسان :٥٧٢/١١ (د ح ل)، والدُّلَّح : السحابة المملوءة ماء، تدلح في سيرها .

(٢) من الرجز، وهو في كتاب العين وسط شطرين من الرجز هكذا :

ولم يَزَلْ عِزُّ تميم مُدْعَما

للنّاس يدعوهَيْقَماً وهَيْقَما

كالبَحْر ما لقَّمْتَهُ تَلَقَّما

ينظر : كتاب العين :٢٥٠/١(هـ ق م)، والهيقم الظليم، والميم فيه زائدة، وكذلك الهيق. ينظر: لسان العرب : ٣٧٠/١٠(هـ ي ق) .

(٣) الخصائص:١٦٥/٢،١٦٤.

بعبقرية هذا الرجل في فهم الواقع اللغوي، حيث يصل بفكره إلى أقرب النظريات قبولا في نشأة اللغة الإنسانية، فقد راعى الجانب الاجتماعي، والغريزي، والتقليدي (المحاكاتي) .

كما أقف عند قوله : والأمر أوسع، فهذا يدل على سير ابن جني على نهج أفلاطون ومن تبعه في تكثير أمثلة المحاكاة، وعدم الوقوف بها عند حد .

رحم الله – تعالى – العلامة ابن جني على ما قدمه للغة الضاد من جهد، وما بذله من عطاء.

الخـاتمـة

بعد الفراغ من هذا البحث، يمكنني إجمال نتائجه في النقاط الآتية:

١- سار ابن جني على نهج فلاسفة اليونان – لا سيما أفلاطون في الاعتراف بفكرة المحاكاة، والتكثير من أمثلتها .

٢- أجاد ابن جني عرض تلك النظرية، وصاغها بمنظورعربي، ينم عن ذكاء وفطنة. فلا نعدم شخصيته العربية في استحضار الأمثلة، والتطبيق عليها .

٣- أدرك ابن جني قيمة الحرف التعبيرية، في ظل بنيته اللفظية، وربط بين الصوت وبين دلالته الطبيعية.

٤- اعترف ابن جني بأنه مسبوق في هذا الجانب من علماء لهم فضلهم ومكانتهم، كالخليل وسيبويه، وأبي علي الفارسي، وأقر بقبول هذا النوع، وبصحته عند جماعة اللغويين .

٥- نظر ابن جني إلى الواقع اللغوي نظرة متدبر، فربط بين النظريات المتنوعة في نشأة اللغة، حيث وصل بفكره إلى أقرب النظريات قبولا في نشأة اللغة الإنسانية، فقد راعى الجانب الاجتماعي، والغريزي، والتقليدي (المحاكاتي).

٦- اعتمد ابن جني على صفات الحروف لإثبات التفاوت والاختلاف بين الألفاظ التي تتشابه حروفها .

٧- جوز ابن جني القياس على ما ذكره السابقون في هذا الجانب، وفتح باب الاجتهاد للاحقين لتتبع أمثلة هذه الظاهرة، ومحاولة جمعها واستقصائها .

٨- اعترف ابن جني بالصناعة اللفظية للمعنى الموجود بالفعل ،ومحاولة تقليده، بيد أن هذا لا يستطيعه إلا حذاق اللغة، والمدركون لأسرارها وخباياها .

٩- استخدم ابن جني المنهج الاستقرائي والاستنباطي، لإثبات أمثلة هذا النوع من المحاكاة . وكان يتدرج في تفريعاته من الأدنى إلى الأعلى، ومن الغريب إلى الأغرب، فيأخذ بلب القارئ ويمتلك فكره وفؤاده.

١٠- كان ابن جني ميالا إلى التعليلات التي لا تخلو من نزعة فلسفية، تحتاج إلى فطنة وقوة برهان.

١١- دعمت فكرة المحاكاة أسبقية المدلول (المعنى) على الدال (اللفظ) .

توصيات الباحث:

يوصي الباحث بتتبع جهد القدماء في أمثال هذه القضايا، وعدم طرحها جانبا، بحجة عدم وجود أدلة قطعية على إثباتها، إذ لا يخلو الجهد العقلي والفلسفي من حقائق، ولو كانت جزئية.

وأخيرا، فهذا غاية جهدي، ونهاية فكري، وأرجو من الله القبول والسداد والرشاد.

فهرس المصادر والمراجع والدوريات

- الأساس في فقه اللغة العربية وأرومتها، د. هادي نهر، ط : ثانية مزيدة ومدققة ومنقحة ٢٠٠٥ م – ١٤٢٦هـ . دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن– اربد.

- بحوث في اللغة بحث بعنوان: (اللغة العربية التحديات والمواجهة) للأستاذ. سالم مبارك الفلق اتحاد الكتاب العرب – المكتبة الشاملة .

- بحوث في اللغة بحث بعنوان : (أصالة اللسان العربي) د. جعفر دك الباب، اتحاد الكتاب العرب المكتبة الشاملة .

- تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبوالفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تح: مجموعة من المحققين، الناشر دار الهداية.

- تبسيط الفلسفة، د. رجب بو دوبوس، ط : أولى ١٤٣٥هـ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ليبيا– بنغازي .

- تعريف الفلسفة لغة واصطلاحا، بحث للكاتبة إسراء حرب، آخر تحديث : ١٤ أغسطس ٢٠٢٠م .

- التعريف بإيمانويل كانط وتثميره في المنهج، إعداد: وداد الجمال، الجامعة اللبنانية٢٠١٠٠٩٢٠٠٢م .

- تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى:٣٧٠هـ) تح: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ط : أولى، ٢٠٠١م .

- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ) تح: محمد على النجار ط رابعة – الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- دائرة المعارف – المجلد السابع ، ط : دار المعرفة – بيروت – لبنان .

- دراسات في علم اللغة (الوصفي والتاريخي والمقارن) د/ صلاح حسنين ط : ثالثة ٢٠٠٧-٢٠٠٨م – مكتبة الآداب .

- دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون للقاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص ط : أولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م – دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان .

- دلالة الألفاظ ، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م ، مكتبة الأنجلو المصرية

- فلسفة اللغة عند أفلاطون ومعه نص محاورة كراتيليوس، (دراسة وترجمة): د.عزمي طه"السيد أحمد" ط : أولى ٢٠١٥م– عالم الكتب الحديث– الأردن– اربد .

- كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمدالفراهيدي، تح: د. مهدي المخزومي د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال – من دون تاريخ.

- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط: أولى، الناشر: دار صادر بيروت– لبنان.

- المحاكاة دراسة في فلسفة اللغة العربية: د. خالد سعد كموني، ط ثانية٢٠١٤م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب –.

- المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ] تح/ عبد الحميد هنداوي ط : أولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م ، دار الكتب العلمية – بيروت .

- مخارج الحروف عند ابن جني (٣٣٠– ٣٩٢)، جمع وترتيب: بندربن عبدالله الثبيتي– جامعة الطائف ١٤٢٨هـ .

- المخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تح: خليل إبراهم جفال، ط : أولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م - دار إحياء التراث العربي بيروت .

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، ط : ثالثة، دار الحرم للتراث- القاهرة .

- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم لأبي الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق: أ.د محمد إبراهيم عبادة ط - أولى١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م مكتبة الآداب - القاهرة – مصر .

- مقدمة ابن خلدون، ط: دار القلم- بيروت- لبنان- من دون تاريخ.

- مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، د.علي سامي النشار، ط : رابعة ١٩٧٨م - دار المعارف .